لحظة لقاء

قصة بقلم الدكتور نعيم عطية

« عندما يجيء الموت ،
ذلك الذي يخطف الرضيع من على ثدي أمه ،
كما يختطف العجوز الذي تقدمت به السنين،
عندما يجيء ذلك الرسول كي يأخذك ، فليجدك
على أهبة الاستعداد جاهزا » .
(من كتاب الحكمة لبتاح حتب)

* * *

صادفت احالة صفوان حلمي الى المعاش صدور أمر بالطرد من البيت الذي سكنه منذ ست وثلاثين سنة . ظهر في الواجهة شرخ طولي ، أجمع خبراء التنظيم أن المبنى اصبح آيلا للسقوط ، وربما هوت الانقاض على رؤوس السكان في أي وقت بالليل او النهار . وقد نقل بعض السكان امتعتهم على وجه السرعة الى بيوت اخرى .. أغلى ايجارا بالضرورة من شققهم في العمارة التي شاخت ، ولم تعد تقوى على الوقوف صلبة العود . وان كان البعض قد مضوا يتشبثون بشققهم الى آخر لحظة ، واستماتوا في عدم اخلائها حتى جاءت اليهم اوامر الطرد مصحوبة بتهديدات السلطة بالاخلاء عنوة ، والالقاء بهم الى عرض الشارع هم و « كراكيبهم » ـ على حد تعبير مندوب التنظيم الذي استثارته مراوغة السكان في الامتثال للقرارات التي صدرت اليه الاوامر بتنفيذها ، ويود ان تنفذ دون وجع الدماغ .

أما صفوان فقد كان من المسالمين . جمع حاجاته وانتقل الى سكن جديد ، بلا جلبة او جدال ، فهم ـ وقد رأى الشرخ الطولي قاصما لكاهل البناء ـ ان الامر قد قضي ، وآلا مفر من الاذعان ، فلكل شيء آخر ، حتى ولو كان بناء اعتبر زينة الحي عندما شيد على أحد شوارعه التي شقت منذ سبعة وستين عاما أو زهاء .

استغنى صفوان عن اشياء كثيرة ، مرغما على أي حال . باعها الى تاجر اشياء مستعملة برخص التراب . ولم يكن الثمن نصب العين ، بل كان الاستغناء عن اشياء لم يعد لها مكان في الحيز الجديد هو المرام ، فمن غير المستطاع ان تستوعب غرفتان حاجيات شقة من خمس غرف وصالة ، ومن الطراز القديم ايضا . ومهما كانت اشياء الايام الخوالي عزيزة على القلب ، فليس لشقق هذه الايام قدرة على استيعابها ، ولا يبقى لصاحبها اضطرارا ـ اذا اراد ان تبقى ملتصقة به ـ سوى الذكريات .

رتب صفوان ما جلبه معه من قطع الاثاث وصف ما احتفظ به من كتب على الارفف . واستعان بأم نوال ـ الوحيدة التي بقيت له من الحي القديم ـ في كنس الشقة الجديدة وازالة الجير والطلاء الزائد من على الارضية البلاط . وبعد بضع ساعات لم يغالب صفوان الرغبة الحارقة في ان يفتح الباب الخفيض ، ويخرج الى الشارع تلو الشارع في هذا الحي الجديد الذي لم يزدحم بعد بالناس ، فبدت أرجاؤه مقفرة باردة اذا ما قورنت بأرجاء الحي القديم البعيد الآن ، الذي تتردد اصداؤه في المخيلة كأنها نغمة شجية من اسطوانة على الحاكي العتيق الذي باعه صفوان ضمن ما باع .

في الشهور الاولى ، كان يغلق باب شقته ، ويمضي الى محطة الاوتوبيس يركبه الى الحي القديم ليجلس في مقهى « السعادة » مع جيرانه القدامى يشرب كوبا من الجنزبيل كعادته ، ويتابع من يلعبون الطاولة ، فاذا كانت اللعبة دورا من الشطرنج زاد اهتمامه وتسمرت عيناه على القطع الخشبية التي تتحرك بحذر وذكاء على الرقعة المقسمة الى مربعات بيضاء وسوداء . ولكن مع الوقت أحس بأن المشوار بدأ يصبح طويلا وثقيلا . ربما استفحل الزحام في الاوتوبيسات هذه الايام ، او ربما تزايدت اصابة موتورات هذه السيارات بالعطب . فيطلب من الركاب النزول لاخذ الاوتوبيس التالي. وفي الصعود والزاحمة والهبوط مضى صفوان يشعر بالتعب ، فثبطت همته ، وقل تردده على الحي القديم الطيب . وبخاصة ان أعز جيرانه الحاج عمران ما لبث ان توفاه الله . وظل مكانه في المقهى وفي القلب خاليا . اما جورجي افندي صراف المالية القديم فقد حزم امتعته ورحل على كبر الى كندا حيث كان قد سبقه اكبر ابنائه الدكتور سامي الذي صرف عليه دم قلبه في مدارس الفرير ، ومضى يلم شمل الاسرة حوله في مونتريال .

في ذلك المساء عاد صفوان متأخرا من عزاء آخر اصدقاء الحي القديم ، وهبي افندي ، باشكاتب عموم الاقلام . مرض ، ولم يمهله المرض طويلا . عند باب العمارة التقى صفوان بميو .. اعتصرت قلبه بين ضلوعه عينان فوسفوريتان تسلطان عليه نظراتهما من وراء الزجاج السميك . وما ان اكتشف انهما عينا قط مختبىء حتى كان صاحب العينين النفاذتين اللامعتين اسرع منه ، فقد اقبل عليه يموء ويتمسح في سرواله متوددا . ثم مضى في اعقابه يقفز درجات السلم صاعدا.

أطل عليه صفوان في الظلام وابتسم ، فقد كان الحيوان الاليف يرفع اليه رأسه المسندير بين الفينة والفينة ، ويحرك ذيله المنتصب كما لو كان يدا ممدودة اليه بالتحية .

عندما وصل صفوان الى باب شقته ، سقط منه المفتاح . انحنى يلتقطه . ولم يغالب نفسه من ان يربت على رأس ميو الذي استجاب اليه واستكان لملاطفته . كان فراؤه رطبا من اثر الامسية التي ما كانت تخلو من لذعة باردة تنذر بأن الشتاء قد خطا حثيثا الى الارض . وعندما فتح صفوان الباب كان القط اسرع منه في الدخول . ومضى يستكشف انحاء البيت الذي قرر ان يسكنه .

مع الايام فترت الاحاديث ، تباعدت العبارات ، وأضحى الكلام في المقهى فانرا أجوف . كل قول صار تزايدا . كل ايماءة جثة بلا روح . اغصان يابسة تقطع وتلقى في النار التي تظل منطفئة . كل شيء ركد . كل نفس همدت وتأهبت للرقاد . لم يعد هناك ما يقال . لم يعد ثمة ما يضاف . كيف اصبحت ؟ مثلما أمسيت . ما الاخبار ؟ لا جديد . ما من جديد كان ينتظر .

لم يحس صفوان بذلك الحي القديم متغلغلا في دمه قدر ما أحس به عندما نزح عنه . كل شيء يذكره به ، وعلى الرغم من انه لم يعد يتردد عليه في الآونة الاخيرة ، الا ان الحنين اليه ظل الى حين يملأ قلبه . صدق اذن ذلك القول بأن بطن المرأة بعد الوضع تبحث عن الجنين الذي كان بها . يلوم صفوان نفسه أشد اللوم على رحيله لكنه يعرف انه ازاء أزمة المساكن المستحكمة ما كان يمكن ان يجد خرم ابرة الا في هذه الضاحية الجديدة على مشارف المدينة التي تمتد في جميع الاتجاهات ، والى هذه الامتدادات تلفظ المدينة القديمة ابناءها من احشائها . لكنه ما كان يلبث ان يهدأ ويقول لنفسه : « كل ارض الله سواء » . ثم في النهاية هذه الشقة الصغيرة البيضاء ، حديثة الطلاء ، لا عيب فيها بعد ان ألف سقوفها الواطئة وحوائطها المتقاربة وكواتها الضيقة .

لم يعد الحي القديم هو الحي الذي يعرفه . انفصل عنه . لم تعد صورته في مخيلته وصورته في الواقع تتطابقان ، ابتعد صفوان ، ابتعد كالارض بالنسبة لباخرة تمضي الى عرض المحيط . استحال كل شيء في ذلك المكان القصي الى ذكريات ضمن الكثير من الذكريات الاخرى .

هكذا كان الامر ايضا في شبابه . عندما جاءه امر النقل الى القاهرة كان يعتقد انه ليس بممكن ان يبتعد عن الاسكندرية ، ويقول : نحن السكندريين مثل السمك ، اذا أخرجنا من مياهنا متنا . اول الامر لم يترك شقته هناك .. في محرم بك .. ظل محتفظا بها شهرا تلو شهر . ومضى يقطع المسافة بالقطار ثلاث مرات في الاسبوع . ثم بعد خمسة أشهر سكن شقته في الحي القديم ، ومضى يسافر الى الاسكندرية كل اسبوعين ، ثم لم يعد حتى في الصيف يذهب اليها . أصبح الحي القديم ذو الماذن والعطفات والمشربيات ودكاكين العطارة هو التربة التي انغرس فيها وتشعبت في طينتها جذوره .

في الحي الجديد لم يعقد صفوان صداقات حقيقية ، بل اصبح له بعض المعارف فحسب .. الاسطى امير الحلاق ، الذي ادرك سريعا ان زبونه على المعاش ومقطوع من شجرة ، فكان يتفنن في استخدام المقص حول الرأس ومن الخلف وعند الاذن ، دون ان ينقص من الشعر شعرة ، فتطول الجلسة وتمضي الثرثرة التي كان يضجر منها صفوان فينشغل عنها بتصفح المجلات التي تعرض كثيرا من الموضوعات المثيرة كمصرع راقصة ، او اكتشاف مقبرة فرعونية نهب اللصوص محتوياتها ، او تلف بعض الموميات في المتحف حيث كان يعمل فترة من حياته الوظيفية .

ومن معارف الحي الجديد ايضا الحاج عطوة البقال ، الرجل المتدين الذي يملأ حوائط دكانه بالآيات المكتوبة بخط كوفي اكثر مما يملأ ارففه بمواد البقالة .. مسبحة صفراء ولحية بيضاوية .. كان صفوان يمر عليه ويشتري قطعة من الجبن لعشائه او علبة سمك محفوظ لغذائه او ثمن زيتون اسود كلما توافر الصنف .. يتبادل معه الكلام في حال الدنيا ، ويؤكد له الحاج عطوة ان اخلاق اولاد اليوم قد تدهورت الى الحضيض ، وان يوم الحساب قد دنا ، ويدلل على ذلك بالعديد من الامارات والشواهد .. لكن كل ذلك ـ كما لاحظ صفوان ـ لم يكن يمنعه من ان ينقص في الكيل .

زادت الحبال الواصلة بالاخرين تقطعا ، واتسعت من حوله هوة الصمت . كان يجر كرسيه الى جوار النافذة البحرية التي تطل على الشارع ، ويقتل الوقت يتابع المارة . لا زال الناس يجيئون ويذهبون. لا زال البعض يمضي واثق الخطى يدق اسفلت الطوار بحذائه . يتداخل السائرون . يمضون . يمضون . يختفون عند المنعطف . يأتي غيرهم يمضون . يبتعدون ويتبددون .

في الغروب ، يخف المارة ، ونهدأ الحركة ، عندما تغلق البنوك والشركات ابوابها في الحي التجاري القريب ، ويصبح الطريق مقفرا ، وعلى الجانبين بضع شجيرات هزيلة ، تصارع اغصانها النحيلة الجرداء لتطول السماء . صورة بنفسجية تزداد انطفاء كلما انطفأت من العينين نعمة البصر ، ومن على اسفلت الطريق يتعالى وقع سنابك جواد ابيض يقبل من عند المنعطف مسرح وبلا راكب يمتطيه . ثم اخذت الاذنان تضعفان . ومن بعدهما كل الاعضاء .

اذا ما تكلم اليه احد يسمع الكلام كأنه لا يوجه اليه ولا يعنيه ، يبدو له غريبا عنه . يطرق اذنيه ولا ينفذ الى عقله او قلبه . تمة صوت في اعماقه على العكس من ذلك يتمرد على كلام الناس الموجه اليه . ويهتف به : ما شأنك انت وهؤلاء ؟ امامك امور اكثر اهمية وجسامة من هذه الثرثرات الجوفاء . هذا الصوت يزداد في اعماقه تمردا ورفضا بكل ما يفد اليه من الخارج . انت مقبل على حدث جلل .. وكل يوم بقي لك يقربه منك .. ماذا ستفعل ؟ عليك ان تتاهب له .

لم يبق على الاطلاق شيء . اضحى الوجود خواء مضنيا . كان لا بد الخروج منه . فكر صفوان . فكر بوافعية . فكر في وضعه الراهن ، فيما بقي له : الاصدقاء ؟ راحوا . القراءة ؟ عناء الذكريات ؟ طيور مهاجرة .. وماذا بعد ؟ وجد ان الشيء الوحيد الذي بقي له ، الذي يجذبه وينتشله من خوائه ، الذي يعتصر قلبه ـ ما ان يتأمله ـ بقبضة فولاذية ، ويطالعه بوجه مبهم غامض ، هو ذلك الرفيق الموجود وغير الموجود ، الذي يجرفه دون ان يعرفه . شدد صفوان قلبه . طرد هواجسه . وبقي له شيء من الصفاء الذهني . يذكر لحظات الامتحان ، ليس المدرسية منها فحسب ، بل امتحانات كل يوم . في تلك اللحظات ، كان يذوب فيه كل شيء ، ولا يبقى منه سوى ذهن متوقد متربص . عاد اليه ذلك الصفاء القديم ، ومضى يقلب الامر ، وينقب فيه بامعان وتمحيص . انه هو ! اذن ، هو ؟ كيف ؟ اين ؟ هنا ؟ متى ؟ وعلى الاخص كيف ؟ ما هو ؟!

ذات مساء . وهو يقرأ تحت ضوء المصباح ، أحس يديه ترتعشان، وترتعش معهما الجريدة التي يمسك بها . وضعها على المنضدة المجاورة ، وبسط يديه يتأملهما . قلب راحتيه ، ونظر اليهما . كان الجلد غضنا تناثرت عليه البقع البنية . لا شيء تغير . فقط ، العروق الخضراء بطول ظهر الكف زادت نفورا واخضرارا . اهتزت الاصابع النحيلة الشاحبة قليلا . ابتسم . ارتسمت تجاعيد ثلاث على كل من ركني فمه . حدث نفسه قائلا « ترى ، هل شخت هذه الايام يا أبا مدحت ؟ » وتحجرت الابتسامة على شفتيه . منذ بضعة ايام وهذا التساؤل يزداد الحاحا رغم محاولات التملص من الاجابة . مضى

يحصي ما انقضى من السنين « لم تكن بالكثيرة جدا » هكذا كان يهتف في اعماقه هاتف . « لكنها ليست على اي حال بالقليلة » هكذا ايضا همس في اعماقه صوت زلزل صمت البيت من حوله .

عزم على النهوض ليعد كوبا من « الينسون » . لو كانت ام نوال هنا لجنبته مشقة البحث عن اعواد الكبريت واشعال الموقد ، والتنقيب في دولاب المطبخ عن علبة الينسون ، لكنها ليست معه كل يوم . وحتى في اليومين المحددين لمجيئها كل أسبوع كانت تتأخر كثيرا في الحضور لتسلم عملها في الصباح .. واحيانا تنقطع أياما وايما وتعود باعذار وهمية . يدرك صفوان ذلك جيدا، الا انه يقول « بعد كل هذا العمر وطول العشرة ، هل يمكن استبدالها ؟ »وهل يضمن ايضا ان من ستأتي لتحل محلها أفضل منها ؟ ثم انه في الحقيقة ما كان يرتاح الى غير ام نوال التي عاصرته منذ ايام الحي القديم .. في ساقيه نقر يكاد يكون منتظما مثل نبض القلب ، وفي قدميه ثقل يشدهما الى الارض ، فيتوق للبقاء في كرسيه جالسا، ممدد الذراعين على قطيفة المسندين الخشبيين المنقوشين . تقلصت اصابعه الان على رأسي الاسدين المحفورين في مقدمة المسندين . دس قدميه في الخفين الصوفيين ،وهم بالقيام . زاد ظهره انحناء كما لو كان العبء قد ثقل على الذراعين . غلبه التعب فعادت عظمتا عجزيه النافرتان تغوصان في الوسادة الطرية المنحولة . امواج وامواج تنهال على منكبيه في خواء البيت. عاد يلوذ بالجريدة . نام في كرسيه. مال رأسه الاشيب على صدره ، وعلى الخد الضامر انعكس ظل اصفر. تدلت ذراعه اليمنى الى الارض ممسكة بالجريدة . كان يقرأ فيها عن جريمة قتل ظل القاتل فيها مجهولا . اما راحته اليسرى فقد استقرت في حجره ساكنة بخطوطها الغائرة . وفي خنصره لمعت دبلته الذهبية. ومع نومه نام الالم في ساقيه وظهره ، ويالسعادة ان يكون المرء بلا الم . حملته السفين بعيدا . وفي حلمه ، مد يده وربت على شعرها. ما عاد جلده جعدا ، ولا للكيسين المرتسمين تحت مقلتيه وجود . يسير الان معها ممشوق القامة خفيف الخطى على ممشى رملي في حديقة « السلالات » شاب هو في السادسة والعشرين الى جوار فتاة في العشرين ، فاحمة الشعر تنسدل جدائلها على الكتفين يمد يده يمسك بيدها . تسحبها في خجل . وتنظر اليه بعينين واسعتين واسعتين . لم تكن منطفئة النظرة مترهلة الجسم كما أضحت في السنوات الثلاث التي سبقت وفاتها الباكرة .

لم يبق سوى مواجهة العدو . وجد نفسه في النهاية وحيدا ينتظره . ربما جاء اليوم .. ربما جاء غدا .. بالليل لا يسقط زرار النور البيضاوي من قبضته .. في اية لحظة سيحس باقترابه سيضغط على الزرار ، وستضيء الغرفة . انه لا يريد ان يلتقي به في الظلام، بل في النور الساطع ، حتى يراه وجها لوجه .. لم يكن شجاعا في حياته .. هذا صحيح . لم يأت عملا من اعمال البطولة . لم يلتحق بالجيش . كان وحيد والديه في سن الجندية فاصابه الاعفاء . لم ينقذ غريقا من الغرق . ولا احدا من حريق ، بل انه ايضا لم يدخل في معارك مع غريم .. ولكنه ايضا لم يكن جبانا متخاذلا . وها هي معركته تقترب . الموت ليس توقف القلب عن الخفقان ، بل توقف العقل ، وانطفاء الحواس . فليواجه اذن العدو المجهول المرتقب. انه لن يصرعه . ولا يدعي لنفسه القدرة على ذلك . فليواجه العدو المتوقع بوضوح وصراحة ، على الاقل . كل ما يريده هو ان يعرف . في هذا خلاصه حقا .. على الاقل ، ان يعرف . وبعد ذلك ، يهون كل شيء .

انه آت فلا بد من مواجهته . لم يكن لصفوان اثام كبيرة حتى يشغل الندم باله كثيرا . كل ايامه الماضية طرحها عن كاهله ، فرغ للحظة حاضره وتأمل ما هو آت عن قريب . طالما لا يمكن الا يأتي يوما ، طالما لا يعرف كيف يصرعه او حتى كيف يكون الهرب منه، طالما لا يمكن تجنبه او معاداته ، فلا أقل من التلاقي معه،والالتحام به . اذا ما هبت الريح انحنى الشجر الحكيم لها ، ومضى الرمل واوراق الخريف مكتسحا في مهبها . لا يقاوم الغصن فلا ينكسر . لا يرفض الرمل والورق الساقط بل يمضي طيعا مختارا الى حيثما يحمل ويلقى به . هكذا سيفعل صفوان .. ولكنه ايضا ليس بغصن شجرة ، ولا حبة رمل ، ولا ورقة ذابلة ،بل هو انسان ، فاذا جاء الغريم سيمضي معه ، ولكنه سيعمل كل ما أوتي من حواس وفطنة ، ليفهم ، ويتأمل ، سيبسط الشراع ويمضي معه . وفي كل خطوة سيحاول ان يلمسه ، ويزداد معرفه به . فهذه هي المنحة التي وهبت للانسان: ان يحاول ان يفهم ، ان يصر على الفهم ، فالحقيقة لا تأتي اليه كلها واضحة طيعة .

كل ليلة ، يرهف السمع ، ويحدق في الظلمات قدر امكانه . متأهبا ، بلا توتر . يلصق ظهره بالحائط ، او على الاقل ، يجعل ظهره للحائط قدر المستطاع حتى لا يجيء العدو من الخلف ،فيباغته ، ولا يتيح له ان ينعم بالفرصة التي اصبحت شغله الشاغل الان . وربما تسليته ايضا . فالاستعداد للحظة المرتقبة ، الاتية ولا ريب، اصبح يملأ ساعاته .. الذي لا يريد ان يدعه يفلت من يديه هو استيعاب هذه اللحظة .. هو معايشتها بوعي . يريد ان يسمع كل ما يمكن ان يسمع ، ان يرى ، ان يلمس ، انيشم، ان يعانق ، ان يلقى بعيون مفتوحة ، وآذان مرهفة ، ان يستقبل ولا يدفن رأسه في الرمال ،ان يسأل ويتلقى اجابة : اين ذهب بابنه ؟ ماذا فعل بأمرأته ؟ وبالاخرين؟ لكنه ما لبث ان عدل عن ذلك . لن يشتت جهده . لن يبعثر وقته بالاسئلة . سيركز اهتمامه كله في نفسه . لحظة اللقاء هذه علاقة ثنائية بحت ، ولا تقبل اطرافا اضافيين ، وليست بحاجة الى شهود . وسيعانيها في صمت مركز .

يدفع كرسيه الخشبي ، ويضعه في ركن الغرفه ، في مواجهة الباب ، والشباك المقفل عن يمينه . يغوص في مقعده مسترخيا ، عاقدا يديه تحت ذقنه ، مثبتا عينيه محملقا . ثم يجيل ببصره مدققا منقبا .. في السجادة على الارض ، في السقف ، في الحائط ،في الدولاب والمنضدة ، في المرآة ، على الاخص في المرآة المستديرة ذات الاطار المذهب . فيها يرى ما وراء ظهره ،حتى لو كان الحائط العاري، كما كان يرى في تلك المرآة وجهه . تلتقي على صفحتها عيناه بعينيه، وكثيرا ما تأمل فيها التجاعيد الغائرة على جبينه ووجنتيه الغامرتين، وحول عنقه . ان المرآة بالنسبة له سلاح فعال في معركته المقبلة ، واداة يعول عليها الكثير في مواجهة تلك اللحظة واستيعابها . يتابع نفسه في المرآة ، فهناك احتمال ان يحط عليه غريمه دون ان يجتاز الحجرة . عندئذ ، عليه كي يراه ان يرى نفسه . وبمتابعة هيئته في المرآة سيتابع اللقاء المرتقب لحظة لحظة . سوف تكون رهيبة وفريدة وممتعة معا . قد لا يأتي العدو من خارجه . قد لا يفتح نافذة او يقرع بابا او يذرع غرفا ، قد يقفز من داخله ، فاذا لم يعمل حسابا حتى لذلك ، فقد تفوت عليه الفرصة .

أعد كل الترتيبات في غرفته ، فاس كل شبر منها ، واعاد تنسيق كل شيء فيها ، اسقط كل ما علق على الحوائط ويمكن الاختفاء وراءه او في ثناياه . اتخذ انسب المواقع لسريره وكرسيه . وبث في الارجاء كل ما يمكن ان يكون اجهزة استقبال وتحذير . اصبحت الغرفة رقعة شطرنج صفت عليها القطع بحساب وروية .. هذه الغرفة الصغيرة المحدودة ستشهد انتصاره الصامت المتواضع الخاص جدا ، المهول.. انتصاره الكبير الاول ، وربما الاخير ايضا .

يفكر في كل ذلك . ينظم كل شيء ، دون ان يشرك احدا في خططه . يتوخى الكتمان ، كما لو كان يخشى ان يتسرب سره الى عدوه . كان يطلب من ام نوال عندما تجيء لتنظيف الشقة ، مرتين في الاسبوع ، ان تدفع الكنبة الى جوار الحائط المقابل ، او ترفع

كرسيا من مكانه ، او تخرج دولابا الى الردهة ،او تحضر من الغرفة الاخرى وسادة او مشجبا .. ولكن دون ان يقول لها لماذا يفعل ذلك. تتذمر احيانا اذا تكرر نقل ذات الشيء من مكان الى مكان ،وتضحك احيانا اخرى ، لكنه كان يلزم الصمت والكتمان في كل الاحوال ،فهو يعرف ان السرية لازمة لدحر اي عدو ، فما بالك بعدو من صنف عدوه، وفي معركة مثل معركته .

لم يرض صفوان للقائه المرتقب بغير قطه رفيقا . فهو ليس انسانا ثرثارا متخاذلا وهو حاد السمع ثاقب البصر ،يسمع قبل سواه اي حفيف أو دبة في البيت ، ويلمح في الظلمة ما لا يلمحه غيره . وكم يعجب صفوان به وهو يرفع رقبته من رقاده وتنتصب اذناه ويحدق بعيدا ، كما لو كان يرى وافدا هناك ، ربما خلف الحائط او ربما يصعد السلم ملتصقا بالجدار او متسترا بالظلال ، ويبقى مشرئب العنق متحفزا .. وربما زاد من استعداده للمواجهة فأقعى .. ويمضي يتشمم الهواء ، فاذا ما وثق ان الوافد الخفي قد ابتعد ،وزال وجوده ، من البيت ، عاد فتمدد عند قدمي سيده ، وأسند ذقنه الى ساقيه القطيفيتين السوداوين وعاد الى طمأنينته . وقد اعتبره صفوان أيضا واحدا من اجهزة الاستقبال ، وعول عليه كثيراً ، فهو في نقوش الفراعنة يمسك برأس الافعى رمز الظلام . هاتان العينان المستديرتان الصفراوان الخضراوان المشقوقتان طوليا تريان ما لا يمكن لامرىء أن يراه .تلك الاذنان المخروطيتان تتحركان فتلتقطان حتى ما لا يسمع من همس او دبيب . ذلك الخيشوم المثلث الشكل الوردي اللون الحساس يتشمم الهواء في المنور وبئر السلم . ثم ان تلك الرشاقة وليونة الحركة يجب ان يعمل لها حساب ايضا فهو في لمح البصر وببضع قفزات محكمة يكون عند الباب اذا مسته يد بأوهى دقة ، او في الردهة اذا اهتزت على الارض قصاصة او تحرك على الحائط ظل ، او في المطبخ اذا وفدت منه خشخشة ــ ان ميو واثق من نفسه معتز بقدراته . حارس وفيّ هو. ورفيق يعتمد عليه في تلك اللحظة التي قد تكون حافلة .

بعض الناس يفضلون الكلب وينعمون بصحبته في البيوت . لكن صفوان كان اميل الى ميو . فمنذ اليوم الذي قرأ فيه كيف افترست كلاب الآلهة ارتيميس الخمسون راعي الاغنام المسكين الصبي اكتيون ، وكيف مزقته اربا اربا لمجرد انه رأى سيدتها تستحم عارية في غدير بين احضان جبال كيثيرون بارض اليونان ، وهو يكره الكلاب ويخشاها . يقشعر لتصورها وقد انشبت مخالبها في لحمه وغرست انيابها في بطنه . كيف قفزت على كتفيه واصم نباحها اذنيه وهو يطوح بذراعيه يمنة ويسرة دفاعا عن نفسه عبثا. وطالما انه ليس الها ، فلا بد انه اذا جاءت اللحظة فان الكلب قد ينقلب عليه باشارة من الامير القادم المخيف ، فيفتك به ، اما القط فهو ماكر خبيث رابض الجأش لا يُلعبُ به ولا يُشترَى بسهولة .

الامر الذي يقلقه اكثر من غيره هو فجائية الموت . كان يخشى ان يباغته ، أن يأتي في لحظة لا يتوقعه فيها ، فلا يكون مستعدا لملاقاته ، وعندئذ ربما فسدت خططه ، او على الاقل ، لن تتاح له الفرصة لمعاينة التجربة كلها بالحضور والتيقظ المرجوين .

ومضى يفكر . تساءل كيف سيأتي ؟ في اية صورة سيأتي ؟ كضربة على الرأس ،ام كطعنة خنجر ؟ من الامام ؟ من الخلف ؟ كسيخ يستقر في الجنب ، ام كصخرة تهوي من حالق وتدك العظم ؟ او ربما جاء في هيئة وحش ينقض ، او لعل الارض تنشق عند موطىء القدمين وتبتلع .. او ربما تطبق على العنق اصابع قوية تضغط وتضغط ، او حبل ينعقد وينغرس ، يضيق الخناق حتى يزرق الوجه وتجحظ العينان ويتدلى اللسان من الفم . ام انه لا هذا ولا ذاك . أهو بتر ، ام سحق ، ام اجتثاث ، أم انجراف ،أم ابتلاع ؟ ام اعصار ، ام ماذا ؟ أهو نار تحرق ، أم برد يُجمّد ؟ دفعة الى الوراء وسقوط في هاوية؟ ايكون لهبا ، ام شظايا ، ام تنينا ،أم سيلا ، ام شلالا هادرا وموجا متلاطما ؟ هل سينقض نسر يخطف روحه ، ام ستنفتح تحت قدميه بئر يهوي الى قرارها ؟ هل سينتصب امامه سلم يصعد درجاته الى السماء أو يُدفع به نزولا الى جب سحيق رطب تجري فيه الحشرات والجرذان من حوله ؟ أهو يم ينشق ويبتلع ؟ أهو حجر ثقيل يجذب الى اسفل ، الى أسفل ؟ اهو مخلب ينشب في اللحم ؟ اهو شمس تغرب أم هو يوم يشرق ؟ أهو اعصار ؟ اهو حوت يبتلع ، ام افعى تلدغ ؟ اهو دوي يصم الآذان ، ام هو فحيح يجمد الدم في الابدان؟ أهو موج يغمر ، ام رمل يزحف ؟ أهو جبل صاعد ، ام جرف هاو ؟ أهو ظلام دامس ، أم ضوء باهر يعمي البصر . أم هو ضباب يعتم الرؤية ؟ أهو هذا ،أم هو ليس كذلك ؟ ام هو هذا وذاك معا ؟ كل هذا معا ! مهما كان الامر ، فالايام تمر ، وسيعرف لنفسه وبنفسه ما هو الموت حقا . أهو هيكل عظمي يمسك سيفا او رمحا، ام هو قريب حبيب ممن سبقوه الى الهوة ؟ وجه عمته مريم النبيل، وقامتها الفارعة ، وابتسامتها الحنون ، مثلا ؟ ربت على رأس قطه الرابض في حجره ، فهو يعرف كل شق في الحوائط ، وكل جحر . يعرف كل ما خفي عن العيان ودق ، لهذا فهو يطمئن اليه ويثق به .

انه ابن هذه الارض العتيقة .. ميو .. هذا اسمه منذ قديم .. فقد استؤنس منذ الاسرة الحادية عشرة .. ومن مصر انتقل عبر اليونان الى اوروبا .فهو اذن ابن بلد حقيقي... لقبت النساء باسمه ولبسن فراءه .. من اجل هذا الفراء كان يُصاد في البراري التي عاش فيها . وفي مقابر البداري وجدت بقايا الجثث ملفوفة بفرائه الثمين .

انه يصاحب سيده الى دورة المياه وفي جولاته الداخلية المحدودة. يرقد تحت مقعده اذا جلس .. يبسط مخالبه ويخمش بها رجل الكرسي او طرف عباءة سيدة . ثم يقفز الى حجره للملاطفة . وقد كان للحكيم كونفوشيوس ، على ما يبدو ، أيضا قط مثل ميو .

قل نوم صفوان . صار اغفاءة . يستيقظ بعدها منتبه الحواس مفتح العينين يقظ الجوارح ، مترقبا ، كما لو لم يكن قد نام قط . يقول لنفسه : النوم عادة في اغلب الاحيان ويمكن مقاومتها والتغلب عليها ، فالجسد لا يحتاج الا الى كفايته ، او الى اقل من كفايته بقليل . اذا داعب الكرى جفنيه قاومه . واذا ثقلا رفض ان يطبقهما . انها جولته الاخيرة ، ولئن كان قد خسر كل جولاته السابقة ، فانه تكفيه هذه الجولة الحاسمة ، لو ربحها لربح ــ كل شيء . لا يهم كل ما فات . لا يهم . كل ما ضاع يُسترد ، بضربة واحدة يُسترد ، كل ما راح من اليد يعود ، ويعود اضعافا مضاعفة . وما دام قد حقق انتصاره هنا ، في هذا الركن الهادىء الصغير على مشارف الصحراء فقد حققه اينما كان في هذا الوجود .. في بعض اللحظات يهزمه سلطان النوم تماما ، لكن عزاءه في تلك اللحظات ان قطه الامين قابع عند قدميه ، على اهبة الاستعداد لايقاظه بموائه ، اذا لاحت بادرة على اقتراب العدو ،وعندئذ سوف يهب متسع الحدقتين ، متيقظ الحواس كلها .

كانت جدته تخاف البقاء وحدها في البيت ، لا لانها كانت جبانة او متخاذلة ، فهذه الريفية الخشنة ابنة الارض والطبيعة العارمة، وقد مرت في حياتها السابقة بكثير من الشدائد رابطة الجأش .لكنها كانت ــ دون ان تقول ــ تخشى البقاء وحدها في البيت عندما كبرت وتقدم بها العمر ، فقد كانت تتفادى الالتقاء باللامسمى دون ان يكون ثمة من هو الى جوارها . لهذا كانت ، عندما تتأهب ابنتها وزوجها للخروج ، اول من يرتدي ثيابه ، وتنتظرهما في الصالة ، متأبطة حقيبة يدها السوداء ، بجوار الباب ، حتى تخرج معهما ، بل وتخطو الى عتبة الباب قبلهما ، كي لا تبقى وحيدة بين جدران البيت التي

قد نحتويها مع المجهول .

عندما يفكر صفوان في حياته ويستعيد ايامه ينتابه احساس بانه انما كان يصطاد في بحر لا سمك فيه .. كان يلقي بسنارتــه وقد سمن فيها الطعم .. وعندما يخرجها لم يكن بها سمك .. ولكن ايضا لم يكن للطعم وجود .. كان يذوب .. يتبدد .. يتلاشى .. دون ان يصل الى شيء .. ولم يكن هذا الطعم بالامرالهين .. بل كان يكلفه ايامه كلها .. وهل كان لديه غيرها ؟ واذا استغرق في تأملاته استبد به تساؤل لم يكن يجد له اجابة شافية .. كانت البوادر كلها توحي لحظة بعد لحظة بان ذلك البحر مليءبالسمك .. كانت الفقاعات الصاعدة من جوف اللجة تومىء الى ان ثمة ما يتنفس هناك تحت السطح . ولكن دائما كانت السنارة تخرج الى الهواء تهتز وتتارجح خالية حتى من الطعم .. الذي ضاع .. كل مرة كان الطعم يضيع .. لكن هناك في اعماق الصدر .. في مكان ما تحت الضلوع .. هاتف لا يهدأ .. ولا يفتر .. ربما في المرة القادمة .. ستلمع السمكة وهي تتلوى فضية في الهواء .. وسيمد يده ويمسك بها ويشعر بانتفاضتها في قبضته ثم يقتلع الشص من فمها برفق قدر الامكان .. ليضعها في السلة .. وستتلوها .. سمكة . واخرى واخرى .. تلمع .. وتتلوى .. ثم تمتلىء بها السلة . لم يكن يألو جهداً في الحصول على افضل طعم .. حتى يكون حظه في الغد افضل .. ولم يكن يتردد في الخروج مهما كان الجو باردا والفجر لم يكن قد زحف على الوجود النائم بعد .. ذات مرة ... مرة واحدة فحسب .. اخرجت سنارته سمكة صغيرة منتفخة سمراء مختلطة بخضرة قاتمة ربما من كثرة احتكاكها بطحالب القاع .. فرح بها برهة .. لكن الى جواره كان يقف صبي ربما كان ابنا لاحد الصيادين .. قال له : « ياه ، انها جعيرة .. لا فائدة منها .. الافضل ان ترميها من حيث طلعت .. » فتأملها ودقق النظر فيها .. واستوقفه على الاخص عيناها الجاحظتان .. لا يدري لماذا صدق ذلك الصبي .. فطوح بالجعيرة بعيدا الى البحر من جديد .

« تعبنا طوال الليل ولم نصطد شيئا » كان هذا هو الماضي .. ما وراءه .. لكن كل هذا ما عاد يعنيه الان .. انه ينتظر اللحظة الحاسمة .. الصيد الكبير .. واي صيد اكبر من اثبات ذاته .. انه سيفوق كل الاخرين الذين كانت حياتهم مكاسب وانتصارات .. لانه .. لانه ماذا ؟ هل حقا .. سيلتقي به .. ويقتنصه .. قبل ان يغرق قاربه .. ويغوص الى القاع المظلم ؟ ذلك القاع المظلم لا يعنيه .. سواء كان قاعا او لم يكن .. مظلما او مضيئا .. ما بعد تلك اللحظة هو خارج حساباته وتوقعاته .. عندما تتوقف الحواس .. بعد ان تتوقف الحواس .. لا يعنيه الامر .. فهو يعرف انه عندئذ قد انتقل الى نطاق المستحيل .. اما تلك اللحظة المرتقبة .. فهي لا زالت في حيز الممكن .. صحيح انه الممكن صعب المنال .. ولكن على اي حال .. لا يعتقد انه متعذر المنال .. فهو انما يعتقد ان الامر لا يحتاج الا الى احسان استخدام تلك الحواس .. رباطة الجأش .. التحديق في الوجه مباشرة وعدم الاشاحة مهما كان الامر .. ولا شيء غير ذلك .. انه يكاد يعرف انه ليس له سوى هذه اللحظات .. وعلى الاخص اللحظة الاخيرة يجب ان تكون له كلها .. كلها له .

كلما سأل صفوان عن الامر في شبابه ، قيل له ليس في مقدورك ، ولا في مقدور احد ان يعرف . كان لا يرتضي هذه الاجابة ، ولا يقتنع بها ، بل يتمرد عليها كثيرا . يشد من ازره كل نبأ تطلع به الصحف عن تقدم علمي او اماطة للثام عن خبيئة من خبايا الطبيعة . فكان يحدث نفسه قائلا « ما من خلاص للانسان سوى العلم » ثم يقول لنفسه متحسرا « لكنني لست من العلماء في شيء » . ثم يستطرد قائلا لنفسه ايضا ـ فقد كان يخجل من ان يجاهر بذلك ـ « ولكن من هو العالم الحقيقي ؟ أهو من حشا عقله بالكثير من المعلومات ؟ أهو من حصل على الشهادات تلو الشهادات ؟ كلا ، انه من يرفض ما ليس عليه اثبات ، ويضبط سلوكه على الملاحظة والتأمل ، فلماذا لا يكون عالما بالروح ، ما دام ليس عالما بالفعل ؟ « العلم تجربة انسانية يواجه صاحبها ما في الوجود من غموض ليفضه ، لا يأخذ شيئا على علاته ، وبشغف يعانق حتى عدوه . وهو اذ يفعل لا يسأل ما الجدوى من ان يعرف .. انه يعرف لذات المعرفة فحسب . كان يقول لنفسه مشجعا الان ، هناك ، عاليا ، عاليا ، ربما كان رائدا يجوب الفضاء ، يطوف النجوم ، بلا وجل أو تردد ، فلماذا لا يشاركه المغامرة ، من كرسيه هذا ، ومن غرفته ثم يبتسم ويقول لنفسه « البعض يموت على خشبة المسرح ، والبعض يموت في مقاعد المتفرجين » .

كانوا يقولون له الحواس عقبة ، والحكمة والحقيقة والكرامة الانسانية انما تتأتى من تعدي الحواس ، من قهرها وعدم الخضوع لسلطانها . كان يقول لنفسه . بل بالحواس ندرك الملموس .. وغير الملموس ايضا . فالاطياف مثلا بعض الناس يعاينونها ، ومن الناس من يلتقط الهواتف ايضا . والصواب ان الحواس بحاجة الى ان تدرب فاذا ما بلغت اقصى درجات التدريب فانها تستحوذ على الكثير مما يغيب عن الاخرين . وبالتركيز والاستغراق ، بالخضوع للحواس والغوص فيها حتى الاعماق ، تتحقق المعجزات الصغيرة ، تلك التي يسميها البعض استخفافا بالمصادفات او الخدع الصغيرة . وليس التعرف على كنه الموت بالمعجزة المستحيلة لانه تجربة مألوفة وفي متناول اليد كل يوم ، لكن ما في الامر ان الاصابع بدلا من ان تطبق عليه ، ترتخي وتدع الحقيقة الباهرة تفلت مثل حفنة من الرمال .

تلك اللحظة سيستحوذ عليها ، ستكون له ، له وحده ، سيقتنصها كلها بحواسه . حقا ، هو يعرف انه عندما ستنطفىء حواسه ، عندما سيطبق عدوه ويشدد قبضته على عنقه لن يكون حتى لحواسه وجود ، بل سيكون وجوده الماضي كأنه لم يوجد قط . فبعد ذلك تأتي الغيبوبة الطويلة الابدية ، ولا يأمل ان تتيح له تلك الغيبوبة ان يعرف شيئا . انما الفرصة الوحيدة العزيزة الغالية ، فرصته هي تلك اللحظة الانتقالية بين الحياة واللاحياة .. وهو لا يعول الا على لحظة الانتقال .. قبل ان ينهمر الطين ويهال التراب ويطمس كل شيء .. ان الشيء المؤكد بالنسبة له .. الشيء الذي يتوق اليه .. لا كمجرد امنية بل كهدف يسعى اليه ، هو ان يقتنص في لحظة حواسه الاخيرة ـ يقتنص غريمه ، يمسك بتلابيبه ، ويطوقه بذراعيه ، حتى لا يفلت منه .. يريد ان يعيش التجربة الى اخر رمق .. وستكون هذه معرفته القصوى والاخيرة .. التي ستجعل لكل حياته الخاوية معنى ومضمونا .. انه يمضي مثل دودة القز الى الشرنقة .. ينسج خيوطها حوله عن طيب خاطر .. حتى تغطيه ، وتعزله ، وتكتم انفاسه . وهو الان انما يفرز الخيوط من حوله .. لتنغلق عليه .. ويجتمع بغريمه ـ بغريمه المتلهف اليه ـ داخل الشرنقة .. انه ينتظره لحظة تسلله . وهو له بالمرصاد .. وربما كان كل حماسه للحياة في هذه اللحظات لا للحياة ذاتها ، بل للمتعة الكبرى ، للكشف الاكبر ، للمغامرة الكبرى .. للفوز بما لم يفز به غيره .. ربما .. بل وما الذي يعنيه غيره في هذا المقام ؟ لا يريد صفوان سوى التجربة المباشرة .. اليقين .. ولا يقنع بغير ذلك بديلا .. مهما كلفه الامر من ثمن .. واي ثمن يضاهي لحظة التنوير العظيمة المهولة ، لحظة ان يعرف بنفسه ولنفسه ، الى ما تسير الحياة ؟ ان العمل في الواقع كثير والفاعل مستحق اجرته . عديدون غيره من الجهابذة افنوا الساعات الطوال في حذق النظريات البليغة والافتراضات حول هذه اللحظة ، لكنهم داروا حول تلك اللحظة فحسب ، من الخارج دائما ، سطحيون دائما ، اما هو فربما .. مثل دودة القز .. ربما .. من يدري ؟.

من يدري ؟! هو بالقطع يدري ، فالمستقبل من صنع تطلعات الحاضر الطموح والمتأججة بالحماس ، وما من احد يتأجج حماسا مثله .. ويمكنه ان يقول لذلك بانه اكثر تدينا من كل اولئك المتدينين الذين يطمعون في ثواب الاخرة ، او يدرأون عن انفسهم عذابها فحسب . انه لا يخشى شيئا ، لا يطمع في شيء ، انه حر .

أبعد الامور عن الظن قد تكون اقربها الى الوقوع . صدئت المفاصل فلم يسرع صفوان الى تزييتها ، اصبح يعول كثيرا على صرير الباب اذا ما فُتح ، فهذا الصوت في هدأة الليل كفيل بالتنبيه الى اي وافد غريب ، متلصصا جاء او متسترا تحت جنح الظلام . سيضغط صفوان عندئذ على زر النور ، فتضيء الغرفة بالنور الساطع ، ويرى الصديق المنتظر وجها لوجه . وفي الضوء الباهر الذي يهتك الاسرار ويفضح الغوامض والخفايا ، كان موقنا انه سينال مأربه ، ويتوصل الى ما لم يتوصل اليه انسان اخر من قبل . ويا له من فتح او اكتشاف سيكون هذا ! اعظم الاسرار سيفضه ، حتى لو احتفظ به لنفسه ، فسيكون ذلك النصر قمة حياته ، والغرض الاصلي من وجوده واستمراره . انها لعبة تستحق كل ما يكرس لها من فكر وانتباه . ويقصي عن كاهله في سبيلها كل انشغالات اخرى.

ولانه لا يريد التجربة الا لنفسه ، لا يريدها الا في ملاءتها وكل حرارتها ، فهو لا يمسك ورقا ولا قلما .. بل يهيء وجدانه وذهنه بل وحواسه على الاخص ، للاستقبال والتلقي .. لا يدّون شيئا ... يريد ان يرشف الكأس حتى الثمالة ، ثم فليقع بعد ذلك على الارض وينكسر . ليفح الوجود حطاما .. وليتطاير ذرات ذرات . فلن يعنيه من الظواهر شيئا .. سيصبح اثرا بعد عين .. فليصبح .. وماذا يعنيه ذلك ؟ الن يكون محورا ، قطبا ، جسما موصلا .. وسيطا .. نجما ؟!

سمع ان بعض الجامعات الاجنبية اخذت تهتم برصد الظواهر العابرة والظواهر غير المبررة وغير المفهومة ، تمهيدا للتوصل الى القواعد التي تحكمها .. مجرد احتمال ضعيف ان يكون للمصادفة البحت ، مثل توارد الخواطر ، قانون يضبطها .. يتوق ان يعمل باحدى هذه الجامعات في قسم من الاقسام المكرسة لاستقصاء هذه المصادفات والاحتمالات . واذا كان غير حاصل على درجات جامعية في مثل هذه الامور ، الا ان الاسهام فيها لا يحتاج في نظره الى شهادة بل الى حدس من نوع معين ، وارهاف للحواس ، وصبر لا حدود له في انتظار اللحظة المواتية .. ان الوهج البراق الذي يلمع في لمح البصر ، وينطفيء ايضا في لمح البصر لا تلتقطه سوى عدسات انسان من نوع خاص ، وهو انسان من هذا النوع ، وقد مضى يدرب نفسه لمثل هذه المهام . ولم يبق الا انتظار الضيف المفضال . وهو لن يتأخر الان .

ثمة صوت يهمس الى صفوان بان ما يجري من حوله لا يمكن ان يكون نهاية بذاتها ولذاتها .. كل هذه التجهيزات انما هي في الحقيقة لبداية الرحلة . ربما خلال ضباب كثيف .. ان النهاية التي تعطي لكل شيء منطقا ومعنى ، تقترب .. تكاد تلوح له .. عندما كان صبيا كان يمد يده في زكيبة بائع البخت الواقف عند باب مدرسة العطارين الابتدائية . اصابعه تسعى في الفراغ المظلم داخل الجعبة متلهفة متخبطة بحثا عن ورقة مطوية .. لا يعرف ماذا بداخلها .. ربما غويشة، ملبّسة ، مبراة ، او غير ذلك من اشياء تافهة .. لكن اصابعه بل ووجوده كله ، يسعى ايضا هذه المرة باحثا عن ورقة مطوية ، لن يكون ما بداخلها شيئا تافها ، او هكذا لا بد ان يكون الامر ، بل شيء خطير مطوي عليه .. هو السر الذي سيضع كل الحقائق الجزئية في نصابها الصحيح .. هو الطلسم الذي يضبط ايقاع كل شيء ..

هل التقى صفوان بالموت قبل ذلك ؟ يذكر عندما كان صغيرا .. في العاشرة من عمره .. كاد يغرق في النيل يوم شم النسيم .. كان يلعب على الحافة الطينية .. رأى على مبعدة في الماء اباه وصحبة من رفاقه .. خطا بضع خطوات .. وبعد ذلك وجد نفسه يهبط في اللجة .. يهبط .. الالوان من حوله سهام متوحشة .. لم يحس بالخوف آنذاك .. بل انتابه استسلام مهول .. وهو يغوص .. الى القاع .. ولكنه في الحقيقة انما كان في طريقه الى الالتقاء بلحظة الموت الحاسمة ، هو كان يقترب منها فحسب .. واذا بيد قوية تنتزعه من شعره وترفعه الى اعلى .. وتخرجه من الماء .. ولم تكن انفاسه قد اختنقت .. ولم يكن قد بدأ يضيق عليه الخناق عذاب الغرق ، ويقال انه اصعب انواع الموت .

جال صفوان ببصره في ارجاء غرفته يستعرض استعداداته واستحكاماته ويطمئن الى كمائنه ومصائده واجهزة انذاره وتنبيهه الى كل همسة مهما خفتت والى كل خطوة مهما خف وقعها . ثم مال يربت على ظهر قطه الوفي الحريص .. بدائية هي استحكاماته ومصايده ؟ صحيح هذا ، ولكن يجب ان نحارب بكل سلاح .. فقد لا يصلح مدفع رشاش بين يدي جندي غشيم في قتل العدو ، بينما يكفي لذلك خنجر مسنون احسن استعماله ، فالانسان لا يحارب بأمضى الاسلحة لزاما ، بل بما بين يديه من اسلحة ولو كانت اقل كفاءة مما يرجوه . وسيستفيد صفوان بكل امكانات سلاحه المتواضع ، وهو موقن بانه ليس متواضعا ،بل انه صالح كثيرا لالتقاط المصادفة .. ها هو جهاز التسجيل ، ها هو مكبر الصوت ، ها هي ازرار الاضاءة .

ثم جاءت الساعات الصعبة . ثقلت الانفاس ، واصبحت اكثر عناء . الدماغ خاوية ، والدوار يقفز الى الرأس بمجرد الوقوف على القدمين . صار الاستناد الى العصا ضروريا الان ، والسير على ثلاث حال كل يوم .. والنبضات تسرع ويصحبها اللهاث . تضع امنوال خلف ظهره وسائد كثيرة حتى يسهل عليه التنفس . كره السرير . لاذ بكرسيه . يمضي الليل مسمر العينين على زجاج النافذة . يترك الشيش مفتوحا حتى ينكسب الى الغرفة ضوء الفجر ما ان تبزغ الشمس كل صباح . اما الزجاج فمحكم الاغلاق على الدوام حتى لا تتسرب الرطوبة الى المفاصل الموجوعة . لم يعد الرجل العجوز يفتح فمه . وانصرف بكل جوارحه للوافد المنتظر . وكلما تضاءلت قواه كلما زادت يقظته وانتباهه الى ما حوله . كما زادت الفته بالصديق ايضا . تمنى فقط ان تكون حواسه كما كانت فيما مضى ، عندما كان يرتقي شوارع كوم الدكة الصاعدة الهابطة ويمشي على قدميه في اصبحة الشتاء المشمسة من محرم بك الى سيدي جابر متلقيا هواء البحر على وجهه ورئتيه . من هو الحكيم الذي بدأ حياته من حيث تنتهي حياة الاخرين ، الذي ولد اشيب الشعر .. عجوزا .. من ذلك الحكيم ؟ من هو ؟! ما عاد يذكر .. كل شيء انطفأ .. شعر كما لو كان ممسكا به بين فكي كماشة فولاذية، فلا يستطيع حراكا .. للمرة الاخيرة يريد ان يصمد .. يرفع جذعه الان بعناء ينجح في الوقوف على ساقيه بصعوبة بالغة وفي السير خطوة او خطوتين ، وكذلك ذراعيه يحركهما بمشقة ، كل شيء بمشقة . شيء واحد لم ينطفيء .. اليقين والرغبة العارمة في لحظة اللقاء . لماذا لم يمت قبل ذلك عندما كان وعيه اصفى واشد ؟ اهذه من الاعيب الصديق اللدود ايضا ؟ ان يضعفك ، حتى اذا ما جاءك وجدك وقد غلبك التعب وهدك ، فلا تكون بقادر ان تتنبه اليه ؟ هل يأتي كلص في جنح الليل ، متسللا ؟ يعيد العجوز التأمل في الامر تبعا للظروف التي يجد نفسه قد انجرف اليها ، لكن الشيء الذي لا يتزعزع هو الرغبة العارمة في اعماقه ان يصمد .. عارفا ان الصديق الوافد المنتظر هو الذي يطرد عن الحياة كل ما تكتسي به من عبث وسخف .. انه اذن صديق حقا .. ولا يجب ان يقابل باستكانة وبلادة .. على

انه يجب ايضا الا يبلغ بالمرء الغباء مبلغا فينخدع او يخدع نفسه به .. ربما كان الشيء الوحيد الذي يجب ان يتقابل به .. الشيء الوحيد الذي لا يجده فينا غالبا .. كبرياء يتشبث بها .. ان ننظر اليه بعيون مفتوحة .. مهما كان منظره بشعا قاتما .. ولكن من يدري ما مظهره .. طالما نفضل ان نغمض العيون ونصم الاذان .. ونكز الاسنان ؟. ليس يموت الانسان بالصراخ والهلع فحسب، بل بالبشاشة والتفتح ايضا يمكن ان يموت .. الامر يجب ان يحمل محمل الجد .. وقد كان هو جادا مهموما كل ايامه السابقة .. فما كان يعتقد ان كل ما يجري من حوله سريعا كدوامة ، بطيئا راكدا كمستنقع خاتمة المطاف ..

حاول ان يرفع يده ، ان يحرك ساقه ، ان ينهض .. ان يعلو صوته بالصياح .. لم يبق له شيء .. انكمش الوجود كله .. وتضاءل حتى صار بذرة .. بقعة صغيرة من الضوء الباهت على السقف . ما عاد يرى شيئا آخر . تسمر يحدق في تلك البقعة من الضوء على السقف .. حتى لمعت عيناه . ما عادتا تطرفان . صارتا كقطعتين من الزجاج البارد جاحظتين في مقلتيه .. دبت البرودة سرت في كل شيء .. الوجود يغرق .. يغرق .

لم يدق الباب سائل عن العجوز الوحيد . لم تمتد يد لتسدل الجفنين على العينين المحملقتين في السقف بثبات .. اللتين ظلتا تحملقان في السقف بثبات اياما وايام . وحتى هو لم يتلق من سيده الحبيب اجابة على موائه المتكرر في استجداء .. لم تربت يد على ظهره ورأسه لم يداعب اذنيه او يحك ذقنه احد .. خلا الصحن من اللبن .. ونضب الماء في الانية وفي الحوض ايضا .. ولم يعد في البيت المهجور ما يشبع لدغات الجوع في البطن الضامر المكسو بالفراء الاسود اللامع . جال الحيوان الالف حول سيده الراقد مستفسرا . تمسح في قدميه تحت الغطاء ،بل في جسده كله . لعق جسمه وخديه .. فلم تستجب الجثة المسجاة لتوسلات المخلوق الاليف الذي مضت عضات الجوع تنهش احشاءه . جال القط في ارجاء الشقة علة يجد منفذا يفلت منه الى الخارج.. خبش باب القبر بمخالبه .. قفز الى النوافذ .. كل المنافذ مسدودة .. زاد مواؤه عذابا .. القبر محكم الاطباق عليه .. عاد الى سيده يتشممه ويتشممه .. يبتعد عنه ثم يعود فيقترب .

كان ابن ام نوال قد استدعي للخدمة العسكرية فشغلت به وانشغلت عن مخدومها اياما . صعدت السلم وطرقت الباب .. ثم يجبها من الداخل احد . زادت الطرق دون اجابة .. توجست خيفة واخذ الشك بأكلها . غادت على سيدها ولا اجابة . دعته ان يفتح.. سالته ما به .. لا اجابة .. التفتت تطرق باب الشقة المجاورة .. رأت التراب المتراكم عليها .. تذكرت ان المدرس وأسرته رحلوا الى الكويت في اعارة .. هرولت نازلة الى الدور السفلى . عادت ومعها بعض الجيران .. عاودوا الدق .. ثم تحفزوا لكسر باب الشقة .. فقد تيقنوا ان العجوز قد اصابه مكروه ..

انكسر الباب . اندفعت ام نوال الى الغرفة .. القط الحبيب.. تقوس ظهره .. ونفر شعره .. واندس ذيله بين ساقيه الخلفيتين. كشر عن انيابه .. اندفع يموء مواء شرسا .. كأنه يدافع عن سيده .. يحذر من الاقتراب او المساس به .. انه سيده هو ، وصاحبه هو وحده .. استطاعت العيون ان تفلت من سحر العينين الصفراوين المستديرتين وتنحرف .. جثة صفوان منهوشة البطن والعنق ..انطلقت الصرخات والصيحات .. خطف النسوة صغارهن في احضانهن ،ولذن بالفرار .. التصقت ام نوال بالحائط تغالب الدوار .. وقد امتلأت نظراتها بالرعب لمرأى سيدها والقط الذي اصابه السعار وسال من انيابه اللعاب .. لم تستطع المرأة ان تذرف دمعة وداع على سيدها ، ولا حتى ان تندبه بكلمة طيبة . جف حلقها ،بحصوتها ، ونضبت مقلتاها . رائحة الجيفة اصابتها بالغثيان. رمقها القط الحبيب بنظرات عدوانية ضارية لم تخل من الخوف والتوجس .. عيناه مثل بركانين ملتهبين بنار مستعرة في احشائه .. ثم مرق بجوارها الى الباب خارجا .. كان ضخما مثل جبل أسود غطت تربته شجيرات حسك وشوك متشابكة الاغصان .. وبخطوات خرساء متلاحقة مضى ينزل درجات السلم . وما ان اختفى من امامها عجزه وساقاه الخلفيتان وذيله الذي بدا كعصا سوداء غرست فيها مسامير مدببة غزيرة .. حتى هرولت بدورها خارجة ، تبحث عن اول شرطي تبلغ ان سيدها مات .. انسانا مات .. حدث صغير واجراءات .. تاركة وراءها الغرفة على ما هي عليه ، غارقة في الصمت والظلال المنعكسة على قسمات صفوان التي تشوهت .

القاهرة

نعيم عطية

دار الآداب تقدم :

رحيل المرافئ القديمة

مجموعة قصص

غادة السمان

رؤى عجيبة لعالم واقعي واسطوري تحتل فيه ماساة الهزيمة الحزيرانية حجرالزاوية، بذلك الاسلوب المتوتر واللغة الحية اللذين اصبحت فيهما غادة السمان نسيج وحدها في القصة العربية القصيرة

صدر حديثا

٤٠٠ ق . ل